محورية اللغة العربية في الخطاب الإصلاحي عند محمد البشير الإبراهيمي

أ. د. محمد زرمان و د. سليمان قريري و د. حياة مستاري

مقدمة

يجمع كثير من الباحثين على أن محمد البشير الإبراهيمي شخصية علمية بارزة، وهبت نفسها لحماية مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية من مخاطر المشروع الاستعماري الفرنسي الذي كان يستهدفها بالمسخ والمحو. وقد حازت اللغة العربية على نصيب الأسد في هذه المعركة الطويلة التي خاضها، حيث كان يعدها – إلى جانب الإسلام - نقطة ارتكاز أساسية في الحركة الإصلاحية التي كان يقودها في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وقد سجل وقائع هذا الصراع الحضاري في مقالاته التي كان ينشرها في مختلف الجرائد والمجلات الجزائرية والعربية، والتي كانت تحمل في طياتها تاريخ مسيرته الطويلة في الدفاع عنها، والعمل الدائب على إحيائها وترقيتها.

إن الدافع الأساسي الذي حدا بالإبراهيمي لأن ينذر نفسه لخدمة اللغة العربية في الجزائر هو شراسة الهجمة الاستعمارية التي استهدفتها منذ سنوات الغزو الأولى، ودأبت منذ ذلك الحين على تغييبها، وتجفيف منابعها والتمهيد للمشروع الثقافي الاستعماري الذي تقوم أركانه على الفرْنَسَة والتنصير والإدماج والذي أعلن عنه ساسة الاحتلال دون مواربة أثناء احتفالاتهم الصاخبة بمرور مائة عام على احتلال الجزائر (١٨٣٠/١٩٣٠م).وكان جهاد الإبراهيمي يصبُّ كلّه في تفعيل البديل الحضاري للمشروع الاستدماري والذي يحفظ للجزائر هويتها ويرتكز على الثلاثية المقدسة الإسلام واللغة العربية والوطن الجزائري، وفي سبيل هذا الهدف النبيل حاول تسخير كل الوسائل والأساليب التي تحقق له غايته، وتضمن للشعب مقوماته الحضارية.

أسئلة البحث:

فإلى أي حد أدرك الإبراهيمي خطورة مشروع الفَرْنَسَة على اللغة العربية في الجزائر؟ وما هي المفردات الكبرى التي يتمحور حولها الخطاب الإصلاحي عند الإبراهيمي بخصوص المسألة اللغوية خلال العد الاستعماري؟ وهل نجح في صياغة خطاب معتدل ومتوازٍ في مقاربة مكانة ووظيفة اللغة العربية في الجزائر؟ وكيف ينظر إلى واقع اللغة العربية اليوم؟ وما هي ..... في لإيمانه بقدرتها على مواكبة الحضارة العصرية، والإسهام بجدارة في العطاء الحضاري؟

منهج البحث:

ستوظف هذه الورقة البحثية عدة مناهج، منها المنهج التاريخي لتتبع الموضوع في سياقه الحضاري، والمنهج الاستقرائي لتتبع قضايا الموضوع المختلفة في خطاب الإبراهيمي، والمنهج التحليلي لتحليل معطيات هذا الخطاب واستنتاج التصورات النظرية حول المشكلة.

وتطمح هذه الورقة البحثية إلى بيان خطورة المشروع الثقافي الفرنسي على اللغة العربية في الجزائر منذ أن وطئت أقدامه أرضها، ورصد المعالم الكبرى لجهود الإبراهيمي في الدفاع عنها وترقيتها، وكشف مخاطر هذا المشروع، واستجلاء موقعية العربية في خطاب الإبراهيمي الإصلاحي والتأكيد على علاقتها الوطيدة بالإسلام والعروبة والجزائر، وعلى إثبات مكانتها وقدرتها على العطاء العلمي الحضاري ومواكبة العصر.

أولا: الإبراهيمي وإستراتيجيته في إحياء اللغة العربية والدفاع عنها

لا يختلف المؤرخون والرحالة الأوروبيون في أن الجزائر كانت تعيش قبل الغزو الفرنسي الأهوج جوا ثقافيا مليئا بالحيوية والنشاط. فقد كانت المدارس منتشرة في كل مكان، والمعاهد

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

العليا متوفرة، والمساجد تقوم بدورها في تعليم الصغار والكبار، وصفوة المجتمع من العلماء والفقهاء والنبلاء يتباهون بمكتباتهم العامرة ويتسابقون في اقتناء أنواع الكتب ونوادر المخطوطات: "وكان هناك أكثر من ألفي مدرسة للتعليم الابتدائي والثانوي والعالي، وكان يتولى التدريس فيها نخبة من الأساتذة الأكفاء"١. ويذكر الكاتب الفرنسي موريس بولار (Maurice Poulard): "أنه كان في الجزائر مراكز ثقافية جاهزة، وكان فيها أساتذة متمكنين في علوم الفلسفة والفقه والأدب والنحو والطب والفلك، وكانت المدارس منتشرة في ربوع البلاد، والتعليم ديني ومدني"٢.

وكان أمر التعليم موكول إلى المجتمع المدني وليس من اختصاص الإدارة العثمانية، وكانت الأوقاف في الجزائر تحت إشراف إدارة أهلية تصرف عائداتها على المساجد والزوايا والمدارس والمعاهد التعليمية، ويتقاضى منها الأئمة والقضاة ورجال الإفتاء والقائمون بالتعليم رواتبهم، ويأخذ منها الفقراء والمساكين حاجتهم٣. وقد شهد الرحالة الألماني فلهلم هيمبرا (Wilhelm himbra) بأن الأمية كانت شبه منعدمة في أوساط الشعب الجزائري عشية الاحتلال، في الوقت الذي كانت متفشية بنسب عالية في دول أوروبا: "لقد بحثتُ قصدًا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه، في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب"٤.

وبعد الاجتياح الفرنسي عام ١٨٣٠م تعرضت المؤسسات التعليمية ومراكز الثقافة العربية في الجزائر إلى الهدم والحرق، وتم تحويل ما بقي منها إلى مقرات للبعثات التبشيرية، أو إدارات عسكرية، أو ثكنات، أو مخازن للمؤونة والذخيرة، أو اصطبلات للخيول٥. واستولى الفرنسيون على الأوقاف الإسلامية التي كانت الممول الرئيسي لحركة التعليم، فانقطع عنها المدد المادي مما أدى إلى تشريد القائمين عليها، وتوقف رسالتها العلمية. وعبثت أيدي الغزاة بالمكتبات العامة والخاصة التي كانت تزخر بها معظم المساجد والمدارس والزوايا وبيوت الأعيان، وكانت تحتوي على ثروة هائلة من الكتب والمخطوطات والوثائق، فأُحرقَت منها أعداد كبيرة، ونُهِبَت أعداد مماثلة أرسلها جنود الحملة كتذكار إلى أهاليهم بفرنسا: "وهذا هو تفسير ظاهرة انتشار المخطوطات العربية في مكتبات البلديات الفرنسية في معظم مدن فرنسا"٦.

وبعد أن أحكم جيش الاحتلال قبضته على البلاد، واصل حربه الضروس ضد العربية، فأصدر جملة من القوانين التي تنص على تحريم تعليم اللغة العربية، وتعاقب بشدة كلّ من يحاول فتح مدرسة أو كُتّاب دون إذن أو ترخيص من الإدارة الاستعمارية، ومنه قانون ٢٤ ديسمبر ١٩٠٤ الذي يُجَرِّم من يفتح مدرسة عربية بدون ترخيص، ويُحَرِّم على أصحاب المدارس المرخَّصَة تدريس جغرافية الجزائر وتاريخها، وتفسير آيات القرآن الكريم، وخاصة تلك المتعلقة بالجهاد، مع ضمان الولاء التام لإدارة الاحتلال٧، كما منعت معلِّمي هذه المدارس من فتح أبواب مدارسهم أثناء الساعات التي تُفتَحُ فيها المدارس الفرنسية: "في محاولة للحدّ من نشاط التعليم في المسجد والمكتب، وحتى يرغم التلاميذ على التوجّه إلى مدارسها التي أظهر الأولاد وأهاليهم عزوفا عن تعليمها الفرنسي، وقد رأوا فيه خطرا يهدد دينهم ويضر بأصالتهم"٨، فقد وقر في نفوس الجزائريين: "أن الطفل أيسر له أن يبقى أميا، أو يتعلم في الكتاتيب القرآنية ولا يتعلم لغة الكفار"٩.

وتوَّجت فرنسا كل هذه المجهودات بقانون ٨ مارس ١٩٣٨م الذي أصدره وزير الداخلية الفرنسي (شوطان Chautemps) والذي يؤكد منع تعليم اللغة العربية منعا باتا، ويعتبرها لغة أجنبية، ويعد تعليمها ونشرها بين أبناء الجزائر: "محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصبغة العربية"١٠.

وبالموازاة مع سياسة الهدم التي مارستها فرنسا ضد مراكز الثقافة العربية في الجزائر، كانت هناك حملة واسعة لنشر اللغة الفرنسية وتثبيت دعائمها في البلاد، حيث سيطرت على المؤسسات التعليمية، والمراكز الثقافية، والمؤسسات الإدارية والاجتماعية والاقتصادية، وأصبحت هي اللغة الرسمية السائدة. وفصلت بعنصرية فاضحة بين قطاع التعليم الذي يتلقاه أبناء المستوطنين، وذلك الذي يتلقاه الأطفال الجزائريون الذين كانوا يتعرضون لعمليات مدروسة لتزييف الوعي، وتغييبهم عن دينهم ولغتهم وربطهم فكريا وحضاريا بفرنسا، والاقتصار في تعليمهم على حد معين لا يسمح لهم بالتطلع إلى مراتب التعليم العليا: "فهو تعليم ناقص لا يؤهلهم لشيء من طرق الحياة ووسائلها،

وإنما يؤهلهم لشيء واحد هو الاستعباد المريح للسيد... إذ لا يحصلون من وراء هذا التعليم إلا على كلمات يلوكونها بالفرنسية، ويفهمون بها عن الحاكم إذا أمر، وعن المعمِّر إذا زمجر"١١.

وغدا الإنسان الجزائري على مشارف القرن العشرين يعيش حالة بائسة من الاغتراب بسبب السياسة الاستعمارية الوحشية التي أخضعته بقوة الحديد والنار، وأسلمته للفقر والجهل. وصارت العربية غريبة بين أهلها، مطاردة بالقوانين الجائرة، تتعقبها تقارير الشرطة السرية، ويتعرض حاملوها لشتى أنواع الاضطهاد والتشريد والنفي والاعتقال.وغرقت الجزائر في بحر من الظلمات إلى أن قيض الله لها حركة الإصلاح التي انبثقت خلال العشرية الثالثة من القرن العشرين، ثم اجتمع علماؤها فوحدوا جهودهم في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي آلت على نفسها أن تتحمل أعباء النهوض بالأمة الجزائرية، وجعلت على رأس اهتماماتها إحياء اللغة العربية وترقيتها لمواجهة مخاطر السياسة الاستعمارية.

وتدور اهتمامات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين ثم رئيسها - في المجال الثقافي والتربوي حول جملة من المحاور الأساسية التي رأى فيها المعالم الكبرى التي ينبغي التركيز عليها للنهوض بالحياة الثقافية في الجزائر، وأهمها إحياء اللغة العربية والدفاع عنها، والاهتمام بالنشاط الصحفي، والتركيز على نشر التعليم العربي الحر. وقد أولى لكل محور منها اهتماما خاصا حتى يتمكن من سد كل الثغرات التي أحدثتها النكبات المتوالية في الواقع الثقافي الجزائري.

كان ارتباط الإبراهيمي باللغة العربية وثيقا، وإجلاله لها كبيرا. وقد أسهمت ظروف نشأته وطبيعة تعليمه إلى حد كبير في بلورة هذا الشعور. ذلك أنه نشأ - كما أسلفنا - في بيت علم وأدب، وتداولت أجياله العلم والتعليم باللغة العربية، فنال منها حظا وافرا في طفولته وصباه، ثم أكمل دراسته في الحجاز على النمط نفسه. وخلال رحلته العلمية استطاع - بما حباه الله من مواهب وقدرات نفسية عالية - أن يتوسع في علومها، ويتبحر في معرفة أسرارها، ويكتشف خصائصها، فازداد تعلقا بها، واقتناعا بعلو مكانتها وسمو مقامها. ولم يكن إجلاله للعربية وتقديره لها، وشعوره بأفضليتها، وافتخاره الدائم بمآثرها الخالدة ناتجا عن عاطفة عابرة أو زهو فارغ، بل كان ثمرة وعي عميق بطبيعتها وأسرارها، واطلاع واسع على علومها، اطلاعا أوصله إلى مرتبة النبوغ التي أهلته لأن ينتخب عضوا في المجامع اللغوية والعلمية في القاهرة وبغداد ودمشق. وانطلاقا من هذه العلاقة المتينة التي ربطت الإبراهيمي باللغة العربية، وإدراكا لمكانتها في الهوية الحضارية للشعب الجزائري والأمة الإسلامية، عمل على إحيائها ونشرها والدفاع عنها ضد كل عوامل المسخ والمحو. وقد تجلت مظاهر هذا الإحياء في عدة قضايا سنبينها فيما يلي:

ثانيا: التأكيد على الارتباط الوثيق بين اللغة العربية بالإسلام

لقد كان نزول القرآن باللغة العربية معلَما تاريخيا حاسما غيَّر مجرى حياة هذه اللغة التي حملت الدين الخاتم، فأقبل عليها الألوف من البشر الذين اعتنقوا الإسلام، يتعلمونها ليتسنى لهم قراءة القرآن وأداء فروضه، ومعرفة أحكامه. ومنذ ذلك الحين ارتبطت العربية بالإسلام، وببقائه حيا على مر العصور بقيت هي كذلك تستمد منه أسباب القوة وعناصر الكمال، وتأخذ منه صفة الصمود والمقاومة، وتستعير من روحه الخالدة عوامل الحيوية والعطاء المستمر: "وهي قبل وبعد كل شيء حاضنة الإسلام، ودليله إلى العقول، ورائده إلى الأفكار، دخلت به إلى الهند والصين، وقطعت به البحار والفلوات، وفيها من عناصر البقاء ومؤهلات الخلود ما يرشحها للسيطرة والتمكن"١٢.

وقد تحدث الإبراهيمي عن هذه العلاقة الجدلية التي تربط الإسلام بالعربية، وأكد استحالة فصلهما عن بعضهما، من منطلق أن اللغة العربية هي اللغة التي نفهم بها القرآن، ونؤدي بها الشعائر، ونقرأ بها تراث الإسلام في التفسير والحديث والفقه والتاريخ، لذلك عدها لغة الإسلام الرسمية: "اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، ومن ثَمَّ فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية"١٣.

تلك كانت عقيدة الإبراهيمي في اللغة العربية، فقد كان يقدسها مثلما يقدس القرآن الكريم. وبقدر ما كان حماسه للدفاع عن الإسلام قويا، كان استعداده للذود عن العربية لا يقل عن ذلك، حيث التزم بحمايتها انطلاقا من إيمانه بقدرتها عل حفظ عقيدة الأمة وشخصيتها الحضارية المتميزة. ويلتقي في نظرته هذه

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

بمصطفى صادق الرافعي الذي كان يؤمن هو الآخر بالرباط الوثيق الذي يجمع اللغة والدين، حيث أكد انصهارهما في قالب واحد يستحيل فصله: "يأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء، ولا منفعة فيهما معا إلا بقيامهما معا"١٤.

وقد ارتكز الإبراهيمي على هذا الاعتقاد لينطلق إلى إثبات عروبة الشمال الإفريقي التي كان الاستعمار يعمل على إنكارها والتشكيك فيها، وليفضح الأهداف البعيدة التي كان يرمي إليها من وراء حربه الضارية ضد العربية، وليؤكد أن الغاية من ذلك هو ترحيل الإسلام بعد محو العربية، لأنه يدرك جيدا الارتباط العضوي بينهما: "ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول، ويعمل لمحوها بالفعل ... وإنما يتعمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة ومُمْسِكة الدين أن يزول"١٥.

وفي معرض دحض شبهات الاستعمار التي تدَّعي أن اللغة العربية غريبة عن الجزائر باعتبار أن العنصر البربري هو الذي يتكون منه السكان الأصليون، أكد الإبراهيمي أن هذه اللغة إنما تمكنت جذورها في هذا الوطن بسبب الإسلام الذي أقام فيه إقامة الأبد: "فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب بِجِرَانِه١٦ فيه، أقامت معه العربية لا تَريمُ ولا تبرح، ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح"١٧.

وهو يوضح هذا المعنى في موضع آخر عندما يؤكدأن التاريخ قد بقبول البربر للإسلام عن رضًى وطواعية لا مجال للجبر فيه، مما يعني بالضرورة أنهم قبلوا العربية التي تحمل معانيهوتشرح تعاليمه: "من قال إن البربر دخلوا في الإسلام طوعا فقد لَزِمَه القول بأنهم قبلوا العربية عفوا، لأنهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا لا يمكن الفصل بينهما، ومُحَاوِلُ الفصل بينهما كمحاوِل الفصل بين الفرقدين١٨"١٩.

وهذا الارتباط العضوي بين العربية والإسلام، والذي ما فتئ الإبراهيمي يلح عليه، لا يعني بأي حال من الأحوال أنه يشترط إتقان العربية حتى يحسُنَ إسلام المسلم، بل هو تأكيد أن اللغة العربية هي الوسيلة المثلى التي تُمَكِّن من معرفة الإسلام من مصادره الأصلية، والطريق الأضمن الذي يتيح الاطلاع على معانيه الحقيقية.

ثالثا: اللغة العربية والشخصية الجزائرية

ولا يقتصر حرص الإبراهيمي على إحياء العربية والمحافظة عليها لأنها لغة الدين والعقيدة فقط، بل لكونها أيضا مقوما أساسيا وجوهريا بالنسبة للشعب الجزائري والأمة العربية، تحفظ لها كيانها الحضاري من كل انهيار وذوبان في الغير. ذلك أن اللغة المشتركة هي بإجماع المفكرين الأساس المتين الذي يقوم عليه تكوين الأمة باعتبار أن الشعوب التي تجمعها لغة واحدة يكون أفرادها حتما مرتبطين بروابط فكرية وعاطفية توحدهم على صعيد واحد، لأنهم يصدرون عن ميراث ثقافي مشترك من الآداب والتقاليد والعادات وطرق التفكير ووسائل التعبير التي انتقلت إلى الأجيال عبر العصور عن طريق اللغة. يقول الرافعي: "أما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجودا متميزا قائما بخصائصه، فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمة في صور التفكير، وأساليب أخذ المعنى من المادة"٢٠.

من هنا اكتست اللغة أبعادا خطيرة في الحفاظ على وجود الأمة، وضمان التماسك الاجتماعي الضروري لها، وكان التفريط فيها أو التخلي عنها لحساب لغة أخرى مؤشرا على زوال الأمة وذوبانها في الأمة صاحبة اللغة الثانية، لذلك قال الفيلسوف الألماني فخته: "إن اللغة هي الأساس في تكوين الأمة"٢١.

فليس غريبا إذن أن نرى الإبراهيمي يشدد على ضرورة إحياء اللغة العربية في الجزائر والحفاظ عليها، والتمسك بها، والاستماتة في المطالبة بتعليمها ونشرها بين أبناء الجزائر كرد فعل على سياسة الفَرْنَسَة والإدماج التي كانت تمارسها السلطات الاستعمارية في محاولة جادة لسلخ الشعب الجزائري عن مقوماته، وكان يهيب بالأمة في كل مناسبة أن تهب للدفاع عن لغتها وحمايتها من عوامل المسخ والمحو وإلا اكتسحتها أمواج الغزو الفكري الاستعماري وذهبت بريحها: "لهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان، كلٌّ منهما يقتضي وجوب تعلمها، فكيف إذا اجتمعا، حقٌّ من حيث أنها لغة دين الأمة بحكم أن الأمة مسلمة، وحق أنها لغة جنسها بحكم أن الأمة عربية الجنس، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا"٢٢.

وهو يوضح - تبعا لذلك - أن اللغة العربية هي اللغة الوطنية للشعب الجزائري، وهي مقوِّم هام من مقومات الشخصية العربية الإسلامية في الجزائر،

وأن بقاء الأمة وحياتها مرهون إلى حد بعيد ببقائها وحياتها: "إن هذه الأمة تعتقد - وتموت على اعتقادها - أن لغتها جزء من كيانها السياسي والديني، وشرط في بقائها. وقد التقى على الكفاح في سبيلها الدِّينُ والسياسة، فلم يختلف لهما فيه رأي، ولم يفترق لهما قصد"٢٣.

وفي ضوء هذا التصور الواضح الذي تكتسيه اللغة في تشكيل الكيان القومي والسياسي للأمة، أبدى الإبراهيمي رأيه الخاص في اتخاذ دولة باكستان الإسلامية للغة الإنجليزية لغة رسمية لها في التعليم والإدارة والاقتصاد، وعدَّ ذلك نقصانا في استقلالها، وغميزة في سيادتها، وتمنى لو أنها اتخذت من اللغة الأوردية لغة رسمية. بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما عدَّ استقلال الباكستان٢٤ مع هيمنة اللغة الإنجليزية على مجالات الحياة المختلفة استقلالا صوريا. وفي ذلك إشارة عميقة إلى إدراكه الواعي للدور الخطير الذي تلعبه اللغة في تقرير السيادة الوطنية وتحقيق الاستقلال التام: "وأنا أستحسن أن تكون اللغة الأوردية هي اللغة الرسمية... تقريرا للسيادة القومية والاستقلال. إذ ما دامت اللغة الإنجليزية هي لغة الدواوين والتعليم والاقتصاد، فإن الاستقلال ناقص على أهون الاعتبارات إن لم نقل أنه صوري"٢٥.

ولا يفوت الإبراهيمي - وهو يؤكد على ضرورة الحفاظ على اللغة القومية - أن يذكر بأن اللغة العربية باعتبارها اللسان القومي للعرب هي الحبل المتين الذي يشد أطراف الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، وهو الذي يوحد أفكارهم ومشاعرهم لأن العربية هي التي صاغت ميراثهم التاريخي الذي يصدرون عنه في كل شيء: "فالعالم العربي بهذه العروبة المكينة كالجسد الواحد إذا ألمَّ بجزء من أجزائه حادث أو نزلت به مصيبة تداعت له سائر الأجزاء بالنصرة والغوث أو بالتوجع والامتعاض"٢٦.

وهو يعدُّ عملية تمزيق الشمل التي مارسها الاستعمار على هذه الأجزاء الطبيعية من الوطن العربي، والحدود الوهمية التي وضعها بينها وظل يحرسها بعين يقظة، لم تستطع في يوم من الأيام أن تقتل في العرب شعور التضامن الذي يجمعهم على الرغم من تباعد الأوطان وتوالي المحن: "إن مواطن العروبة متفرقة متباعدة، وإنَّ الرابط الطبيعي بينها هو هذه اللغة. وقد ألمَّ بها من أحداث الدهر ما أضعَفَ تلك الرابطة حتى رثَّت حبالها... ولكنها لم تُبْتَلَ بداء مثل هذا الداء العُقَام الذي نسميه الاستعمار. ولو أنصفنا لسميناه الطاعون، فهو الذي ألحَّ عليها عن قصد وتعمُّد حتى كاد يزهق روحها، لإيقانه بمبلغ تأثيرها في تثبيت الروابط بيننا"٢٧.

بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك حينما يعدُّ العربية عاملا هاما من عوامل التوحيد بين المسلمين باعتبارها اللغة التي يلجؤون إليها جميعا لفهم الدين واستجلاء حقائقه: "فاللغة العربية منذ أن دخلت في ركاب الإسلام على الأمم التي أظلها ظله كانت سببا في تقارب تفكيرهم، وتشابه عقلياتهم، وتمازج أذواقهم، وتوحيد مشاربهم. وإن هذا لمن المناهج السديدة في توحيد الأمم المختلفة للأجناس. ولولا العربية لاختلفت الأمم في فهم حقائق الدين باختلاف العقليات الجنسية"٢٨.

وقد ظلت الجزائر - على الرغم مما سامها الاستعمار من خسف، وما بذله من جهود لعزلها عن الوطن العربي - تتطلع دوما إلى المشرق كجزء طبيعي منها، تستروحُ منه ريح العروبة، وتعدُّه سندا لها في المصائب، وعزاءها في الملمَّات. يقول الإبراهيمي متحدثا عن الوطن الجزائري: "هذه العروبة هي مِسَاكُهُ على كثرة المفرِّقات، وهي ملاكه على وفرة العوامل الهادمة، وهي رباطه الذي لا ينفصم ببقية أجزاء العروبة في الشرق، وهي السبب في كل ما يأخذ من تلك الأجزاء وما يعطيها، فينصرها في الملمات، ويتقاضاها النصر في المهمات"٢٩.

رابعا: اللغة العربية لغة العلم الحضارة

والإبراهيمي حين يستعرض تاريخ العربية الطويل، منذ أن احتضنت الإسلام وانتشرت في أرجاء العالم، يجده حافلا بالمفاخر، عامرا بالأمجاد، فيسجل لها المواقف الخالدة التي تثبت لها صفة العالمية، وتشهد لها بالقدرة العجيبة على صنع الحضارة.

وأعلى مفاخر هذه اللغة عنده أن الله قد اختارها لتكون لسان الوحي فنزل بها القرآن، وكان ذلك أصدق دليل على سمو مقامها وعلو مكانتها، وإشارة حية إلى أنها لغة فريدة من نوعها، من حيث غناها بالمفردات والتراكيب المتنوعة القادرة على استيعاب جميع المعاني، والتعبير عن سائر الخواطر والمكنونات، وتجلية حقائق العلم بأفصح لسان وأعلى بيان: "وفي هذه اللغة من المزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر، الاتساع في التعبير عن الوجدانيات،

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها"٣٠. ويقول في موضع آخر مبينا ميزاتها وخصائصها: "لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق، غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان، وآداب فارس والهند"٣١.

وقد أهلتها هذه الصفات كلها لأن تفتح للمسلمين مجالا واسعا لينقلوا إليها تراث الحضارات التي سبقتهم أثناء تفاعلهم الثقافي معها، بعد اتساع رقعة الفتوح، واستقرار الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للدولة الإسلامية، فهضمت جميع ما عرض لها من تراث الأمم الغابرة، ونفضت عليها من روحها، وصبغتها بصبغتها: "قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع. وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة"٣٢.

ثم جعلت من هذه العلوم المُتَرجَمَة مادة خاما انطلق منها المسلمون لصنع حضارة شامخة تكفلت العربية وحدها بالقيام بأعبائها وحمل تكاليفها: "ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت في تكوينها وفي تلوينها عدة لغات مختلفة الأصول، ولم تستطع أن تقوم بها لغة واحدة، على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان، ولم تستعر من اللغات الأخرى إلا قليلا من المفردات"٣٣، وأصبحت بذلك في وقت من الأوقات لسان معارف البشر وترجمان حضاراتهم٣٤عندما آوت العلم ونصرته في مرحلة كانت البشرية تعيش ظلاما دامسا من الجهل والطغيان، وفتحت له مجالات واسعة، تقدم فيها خطوات عملاقة إلى الأمام بعدما تعددت ميادينه وتنوعت في ظل الحرية التي أفسحتها له الحضارة الإسلامية. وفي ضوء هذه الملاحظات، يبدو لنا الإبراهيمي مزهوا بالمزايا الخاصة التي تفردت بها اللغة العربية عبر العصور، مفاخرا بما استطاعت أن تقدم للإنسانية من خير عندما أنقذت تراثها القديم من الضياع الذي كان يتهدده٣٥، ثم بما أثرت به العلوم التي سارت بها أشواطا بعيدة، وهو يلخص فضائل العربية ومميزاتها في قوله: "حفظت أصول الدين، وحافظت على متون اللغة، ودونت الآداب والشرائع، وكتبت التاريخ، وسجلت الأحكام والحقوق، وفتحت الباب إلى العلم، وكانت السبيل إلى الحضارة"٣٦. وقد كان الإبراهيمي يعتقد اعتقادا راسخا أن هذا الطور من الضعف الذي تمر به العربية مرحلة استثنائية عابرة، تضافرت على تكريسها عدة عوامل داخلية وخارجية، وأنها متى نفضت عنها غبار قرون الانحطاط والتخلف، ووجدت من أبنائها مَن يوليها العناية الكافية، برزت مرة ثانية بقوة، وكانت رائدة المسلمين في انطلاقتهم الحضارية القادمة. وهذا الاعتقاد هو الذي كان مُلْهِمُهُ في كل أعماله، حيث لم يكن يدع مناسبة تمر دون أن يحاول التأكيد على قوة هذه اللغة وحيويتها واتساعها. ومن الأمثلة الحية على ذلك القانون الداخلي لجمعية العلماء المسلمين الذي تولّى كتاباته وبرع في صياغة مواده، والتعبير عن أهداف الجمعية ومشاريعها. وقد روى سير أشغال جلسات مناقشة هذا القانون فقال: "وكان يحضر الجلسات طائفة كبيرة من المحامين والصحفيين العرب المثقفين بالفرنسية، فأعلنوا في نهاية عرض اللائحة إيمانهم بأن العربية أوسع اللغات، وأنها أصلح لغة لِصَوْنِ القوانين ومرافعات المحامين، وكأنما دخلوا في الإسلام من ذلك اليوم"٣٧.

إن تأكيد الإبراهيمي على ارتباط اللغة العربية ارتباطا عضويا بالإسلام، واعتبارها مقوما أساسيا من مقومات الشخصية الوطنية، والإشادة بمزاياها ومفاخرها، تندرج كلها ضمن إحياء هذه اللغة، والمحافظة عليها تجاه كل المؤامرات التي كان يحوكها الاستعمار الفرنسي وأذنابه في الجزائر. وعلى الرغم من أن الحقائق التي أوردها الإبراهيمي في هذا المضمار ليدلل بها على تاريخ العربية المجيد، وعطائها الحضاري المتميز، ودورها القومي في الربط بين الشعوب لم تُضِف شيئا جديدا لما كان معروفالدى المفكرين العرب منذ القديم، إلا أن طرح هذه المعطيات في ظل الظروف القاسية والوضع المزري الذي كانت تعيشه العربية في الجزائر قام بدور متميز في إعادة الحيوية لهذه اللغة، وأسهم في التعريف بمكانتها، واستنهض الهمم للاعتناء بها وانتشالها من ركام السلبيات الذي كان يطغى عليها، وأحدث وعيا عاما بقيمتها القومية والثقافية بالنسبة للشعب الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي.

خامسا: اللغة العربية ومشروع الفرنسة

كان الاستعمار هو العدو اللدود الذي

وقف للعربية بالمرصاد منذ أول يوم غزا فيه الجزائر، وظل طوال عقود طويلة من السنين يناصبها العداء ويعمل على محوها جهارا نهارا، ويحبك المؤامرات للقضاء عليها وإزهاق روحها، ومحوها من ذاكرة الشعب الجزائري، واستباح في سبيل ذلك كل ما أتيح له من وسائل وأساليب.

وقد أدرك الإبراهيمي أبعاد المؤامرة الاستعمارية التي كانت فرنسا دائبة على نسج خيوطها وإحكام أطرافها، والتي ظهرت بوادرها جلية في فَرْنَسَة التعليم بالجزائر فَرْنَسَةً كاملة وفي جميع المراحل، وفي فَرْنَسَة الإدارة ووسائل الإعلام، وفي إصدار القوانين التي تحرِّم تعليم العربية، وفي إشاعة الشبهات التي تطعن في قدرتها على مواكبة العصر، ووصمها بالقصور والتخلف، وفي محاولة التشكيك في أصالتها بالجزائر، واعتبارها لغة أجنبية جاءت في ركب الغزو العربي، وفي تشجيع اللهجات المحلية البربرية وبخاصة القبائلية٣٨ على حسابها.

لذلك رفع راية الدفاع عنها في شجاعة وحماس، يرد الشبهات، ويدحض الافتراءات، ويُسَفِّه الآراء القائمة على أسس زائفة، ومعطيات مكذوبة. وقد تجلَّى هذا الدفاع على أشُدِّه في مقاومته لمظاهر الفَرْنَسَة المختلفة، ودعوته الحارة إلى إعادة الاعتبار للغة العربية والاعتراف بها لغة رسمية في الجزائر، وفي وقوفه ضد محاولات الاستعمار المشبوهة لإحياء اللهجات البربرية.

لقد لقيت قضية إحياء اللهجات البربرية اهتماما كبيرا في المغرب العربي، وشغلت الباحثين والمفكرين فيه، بعد أن ركز عليها الاستعمار الفرنسي تركيزا خاصا، وجند لها العلماء والدارسين ليعطوها الصبغة العلمية، ويُضْفُوا عليها صفة الشرعية من خلال دلائل الأبحاث التاريخية التي كانوا يقدمونها.

وقد أحاطها الاستعمار بضجة كبيرة من الإشهار، ونشر النتائج التي توصَّل إليها المؤرخون الفرنسيون والأوروبيون الذين تكفلوا بهذا المخطط الاستعماري، والتي تدَّعي أن الأصل الحقيقي للبربروهم سكان المغرب العربي الأصليين، يعود إما إلى الغاليين أو إلى الرومان والوندال٣٩. ومن أبرز مظاهر هذه المؤامرة التيشملت بلدان المغرب العربي كلها الظهير البربري الذي صدر بتاريخ ١٦ مايو ١٩٣٠م، والذي قررت فرنسا بمقتضاه تجريد الحكومة المغربية من سيادتها على القبائل البربرية، وإحداث محاكم عرفية بها مستقلة عن القضاء الإسلامي٤٠.

وكانت السلطات الفرنسية قد سبقت هذه الدراسات وقانون الظهير البربري بمحاولات جادة لإحياءاللهجة البربرية في الجزائر، منذ العشرية الثالثة من تاريخ الاحتلال٤١، حيث عملت منذ ذلك الحين على تخصيص البربر بجهاز تعليم خاص يدرسون بموجبه اللغة الفرنسية والبربرية مكتوبة بالحروف اللاتينية٤٢، وتكثيف الإرساليات التبشيرية بالمناطق التي تقطنها أغلبية بربرية، وإلغاء المحاكم الإسلامية ليحل محلها القانون المدني الفرنسي، وقانون الجماعة البربري، وكان آخر هذه الجهود تخصيص إذاعة خاصة بهم تنطق باللهجة القبائلية عام ١٩٤٨م.

وقد أدلى الإبراهيمي بدلوه في هذه القضية الخطيرة التي تابع تطوراتها، وسجل ما صاحبها من وقائع وردود أفعال، وكان له موقفه الخاص والمتميز منها.

فقد تناولها بالنقد والتحليل في جريدة (البصائر) عام ١٩٤٨م عندما أعلنت السلطات الفرنسية عن قرارها بإنشاء إذاعة تذيع الأخبار والأغاني باللهجة القبائلية، ثم أتبعتها بتخصيص مترجم للقبائلية في مجلس النواب الجزائري آنذاك.

كما حدد بدقة الهدف الذي ترمي إليه فرنسا من وراء هذه المحاولة، ووضعها في إطارها الحضاري، وحذَّر من الاستهانة بها، وأكَّد أنها حلقة جديدة من سلسلة محاولات استعمارية سبقتها، هدفها جميعا إحياء اللهجات البربرية لتوهين العربية في هذا القطر تمهيدا لتمزيقه أشتاتا، وفي ذلك يقول: "ولعل القراء يعجبون لإعادتنا الحديث في هذه المسألة إذ يتوهمون أنها ليست بهذه المكانة من الأهمية، وإن أمر هذه المسألة لأعظم مما يتوهمون، إنها فرع من شجرة خبيثة غرسها الاستعمار بيده وتعهدها بالعناية والتربية، واسمها (التفريق بين الأخوين العرب والبربر)، ومن فروع هذه الشجرة الخبيثة الظهير البربري المشهور، ومن فروعها ما سارت عليه حكومة الجزائر منذ قرن في وطن زواوة٤٣ من تخصيصه بقوانين وأحكام إدارية وقضائية، وتقوية النظام العشائري فيه، وإبعاده بالتدريج عن القضاء الإسلامي، ومن فروعها تكثير مراكز التبشير بالنصرانية في الوطن القبائلي، ومن فروعها راديو الجزائر للغة القبائلية"٤٤.

وبعدما وضع هذه المبادرة في سياقها التاريخي، وكشف خلفياتها، بدأ بدحض افتراءاتها، ونقض حججها، وفضح

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

زيف الأسس التي استندت إليها، ومن ذلك ادعاء الاستعمار أن اللغة العربية في الجزائر لغة أجنبية دخيلة، فرد الإبراهيمي على هذه الدعوى الباطلة مؤكدا أصالة العربية في الجزائر قائلا بلغة الواثق: "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدَّة الأواخي٤٥مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل"٤٦.

وهي توطئة قدمها بين يدي الموضوع ليوحي أن ما سيأتي تأكيد لها، ثم يفصِّل في تاريخ دخول العربية إلى الشمال الإفريقي في ركاب الإسلام، ويبيِّن كيف أن البربر قبلوها عن رضًى وطواعية، لأنهم قبلوا الإسلام قبلها دون إكراه، وأيقنوا أنهم لن يتمكنوا من الاتصال المباشر والصحيح بمنابع هذا الدين بدونها، أضف إلى ذلك ما تبع الفتح الإسلامي من حكم عادل، واختلاط الفاتحين بالسكان الأصليين عن طريق المصاهرة: "ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتنساب في الألسنة واللهوات... يزيدها طيبا وعذوبة أن القرآن بها يُتْلَى، وأن الصلوات بها تبدأ وتُختَم... وزاحمت البربرية على ألسنة البربر فغلبَت وبزَّت... كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر، واقتناع لا يد فيه للقهر، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار"٤٧.

واستطاع من خلال استنطاق التاريخ وسوق الشواهد الواضحة أن يثبت بالحجة القاطعة أصالة العربية بهذا الوطن، وأن ينفي كل مظاهر الجبر والإكراه التي ادعى الاستعمار أن العرب قد مارسوها على البربر لفرض العربية على ألسنتهم، وأن يدلل على عراقتها فيه وتغلغلها في أعماق أبناء الشمال الإفريقي تغلغلا جعلها جزءً طبيعيا من تكوينهم النفسي والعقلي، ثم يضرب مثالا حيا على جو الحرية الذي تمَّ فيه استقرار الإسلام والعربية في الجزائر ببقاء الأمازيغية حية إلى الآن على الرغم من دخول البربر في دين الله أفواجا، وتمسُّكهم الشديد بالعقيدة الإسلامية: "ومن شَهِد أن البربرية ما زالت قائمة الذات في بعض الجهات، فقد شهد للعربية بحسن الجوار، وشهد للإسلام بالعدل والإحسان، إذ لو كان الإسلام دين جبرية وتسلط لمحا البربرية في بضع قرن، فإن تسامح ففي قرن"٤٨.

وعلى هذا الأساس، فكلُّ ما يدَّعيه الاستعمار من أن اللغة العربية أجنبية في الجزائر دعاوى باطلة ولا أصل لها من سند تاريخي أو علمي. وإذا تناولناها بالمنطق الذي يُحَكِّمُهُ الاستعمار رجحت كفة العربية. ذلك أن الاستعمار: "يسمِّي السوداني المتجنس بالجنسية الفرنسية ليومه أو لساعته فرنسيا، ويُلحِقُهُ بنسبه، ويساويه به في حقوقه ومميزاته، ثم ينكر على البربري - مثلا - أن يكون عربيا بعدما مرَّت عليه في الاستعراب ثلاثة عشر قرنا وزيادة، وبعد أن درج أكثر من ثلاثين جيلا من أجداده على الاستعراب، لا يعرفون إلا العربية لغة يتكلمون بها، ويتأدبون، ويتعبدون"٤٩، ثم يعقب على ذلك مستنكرا: "فليت شعري، أيُّهما أقرب إلى الواقع: آلبربري المستعرب، أم السوداني المتفرنِس؟ وأيُّهما أنفذ؟ أَحُكْمُ الله أم حكم الاستعمار؟"٥٠.

فلماذا يصرُّ الاستعمار على تخصيص البربر بإذاعة ومترجِم في مجلس النواب: "أَكُلُّ هذا إنصافٌ للقبائلية وإكرامٌ لأهلها، واعترافٌ بحقها في الحياة، وبأصالتها في الوطن؟"٥١. ثم لا يلبث أن يجيب على هذا التساؤل: "كلا، إنه تدجيل سياسي على طائفة من هذه الأمة، ومكرٌ استعماري بطائفة أخرى، وتفرقةٌ شنيعة بينهما، وسخرية عميقة بهما"٥٢. ويفصِّل في الأمر أكثر محاولا رفع الغطاء عن الأهداف الصليبية الحاقدة والنوايا الخبيثة الكامنة وراء هذه الإجراءات: "إن هذه (العملية) الجديدة سلاح مبتَكَر لحرب العربية، ومكيدة مدبَّرة للتقليل من أهميتها، وحجة مصطنعَة لإسكات المطالبين بحقها في وطنها"٥٣.

وقد تفطن الإبراهيمي إلى أن فرنسا قد لجأت إلى هذه المبادرة في مثل هذا الوقت لغاية في نفس يعقوب. ذلك أن العلماء المصلحين في هذه المرحلة من عام ١٩٤٨م كانوا قد صعَّدوا من لهجتهم في المطالبة باتخاذ اللغة العربية لغةً رسمية في الجزائر على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية، فأراد الاستعمار - بإثارة قضية اللهجات البربرية - أن يغطي على وجه الحق في مطالبة الشعب الجزائري بالاعتراف بلغته. يقول الإبراهيمي إن الهدف البعيد الذي ترمي إليه فرنسا من وراء تشجيع البربرية في هذه الآونة بالذات هو: "إسكات نغمة أخرى تنطق بالحق وتقول: إن هذا الوطن عربي، فيجب أن تكون لغته العربية رسمية، فجاءت تلك النغمات الشاذة ردا على هذه النغمات المطَّردة، ونقضا لها وتشويشا عليها، ولتُلقي في الأذهان أن هذا الوطن مجموع أجناس ولغات لا ترجح إحداهن على الأخرى، فلا تستحق إحداهن أن تكون

رسمية"٥٤.

وفي ضوء هذه المواجهة الحضارية مع الاستعمار وأذنابه، يسجل الإبراهيمي وفاء الأمة الجزائرية للغة العربية، وثباتها عليها، وصبرها على المحن في سبيل المحافظة عليها مهما كلفها ذلك من ثمن فيقول: "والأمة الجزائرية من أوفى الشعوب العربية لهذه اللغة وأكثرهم بِرًّا بها وتَمَجُّدا واعتزازا، وأقواها شبها بها في الشدة على العوادي، والصبر على المكاره، والثبات على المقاومة. فالعربية غالبت في هذا الوطن عدة لغات، فلم تهُن، ولم تُغلَب، والأمة الجزائرية ناهضت عدة استعمارات روحية ومادية فلم تُقهَر، ولم تُخذَل"٥٥.

وينوِّه بجهادها الطويل لإحيائها ونشرها في بلد كتم الاستعمار أنفاسه، وضيّق عليه مجالات الحياة، واستهدف لغته بالكيد والتشويه، على الرغم من فقرها وبؤسها: "جاهدت هذه الأمة في سبيل لغتها جهادا متواصلا، كان من ثمرات النصر فيه هذه النهضة التعليمية التي ولدت الكُتَّاب والشعراء والخطباء والوعاظ، وهي نهضة لم تعتمد الأمة فيها إلا على ما في نفسها من حيوية موروثة، ولم تلتمس فيها عونا من أجنبي، بل لم تَلْقَ من الأجنبي إلا المعارضة الحادة والتثبيط القاتل"٥٦.

سادسا - التعليم العربي الحر وأثره في ترقية اللغة العربية

يعد تنشيط حركة التعليم العربي الحر بادرة شجاعة من مبادرات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للمحافظة على اللغة العربية، وانتشال أبناء الجزائر من براثن الأمية التي أغرقتهم فيها سياسة الاستعمار التجهيلية، وإنقاذ مَن كان يرتاد المدارس الفرنسية منهم من مخاطر تشويه التاريخ، ومحو الهوية. وكان للإبراهيمي في هذا المجال صولات وجولات، ظهرت فيما خطه يمينه من مقالات لفضح المؤامرات الاستعمارية المتوالية لخنق حركة التعليم العربي الحر، والدفاع عن حق الشعب الجزائري في تعلم لغته ضد القوانين الفرنسية الجائرة، كما ظهرت بشكل أوضح في جهوده الكبيرة في تأسيس المدارس العربية الحرة، بدءً من جمع التبرعات من الجماهير، وانتهاءً بتعيين المعلمين والإشراف على المناهج والمقررات.

فقد أفضت الحرب العاتية على مراكز التعليم في الجزائر إلى فشو الأمية بين أبنائها كأثر طبيعي للمخطط الاستعماري الذي كان يهدف إلى تجهيل الشعب وتحويله إلى قطيع من الخدم الصناعي، والرقيق الزراعي، ويؤيد ذلك ما طالب به مؤتمر المزارعين من المستوطنين بتاريخ ٢١ مارس ١٩٠٨م حينما أصدر بيانا جاء فيه: "من حيث أن تعليم السكان الوطنيين يعتبره أعضاء المؤتمر خطرا حقيقيا يتعرضون له من الناحية الاقتصادية ومن ناحية توطين الفرنسيين في الجزائر، فإنهم لذلك يطالبون السلطات المسؤولة بإلغاء التعليم الابتدائي بالنسبة لهؤلاء السكان من المسلمين"٥٧. وقد بلغ عدد الأطفال الجزائريين الأميين في سن الدراسة عام ١٩٣٠م أي بعد مرور قرن من الزمان على الغزو الفرنسي نحو٧٠٠٠٠٠ صبي، وبلغت نسبة الأمية في المجتمع الجزائري ٩٥٪ من مجموع سكانها"٥٨.

ولم تبق في طول الجزائر وعرضها سوى بعض الزوايا القليلة والكتاتيب البسيطة التي تزود طلابها بأبجديات القراءة والكتابة الأولية، وتحفّظهم القرآن، وتلقّنهم بعض المبادئ الدينية، وهي قلة قليلة تباشر عملها في أغلب الأحيان بعيدا عن أعين الاستعمار الذي كان يضرب بيد من حديد على كلّ من يتجاوز قوانينه الجائرة.

كانت هذه هي الملامح العامة للواقع البائس الذي باشر فيه الإبراهيمي وإخوانه من العلماء عملهم الإصلاحي في ميدان التعليم العربي الحر. فقد كانت الحالة العامة تنذر بأوخم العواقب، وكان الظرف التاريخي يتطلب منهم تحديا في المستوى، لذلك انطلقت حملة التعليم العربي الحر متجاهلة كل القرارات الاستعمارية.

وقد رصدت مقالاته إقبال الجزائريين على مراكز التعليم العربي التي افتتحتها الجمعية، ومسارعة الاستعمار إلى إيقاف هذا المد وتحجيمه، وبعثرة جهوده حتى تعود الأمور إلى ما كانت عليه، ويستكمل المشروع الاستعماري بنوده في دفع البلاد نحو الاندماج التام في فرنسا، كما رصدت حملة الاضطهادات التي طالت المعلمين الأحرار الذين لم يمتثلوا لأوامر إدارة الاحتلال، وسجلت الجهود الحثيثة التي بُذِلَت في سبيل المطالبة بحرية التعليم العربي ورفع إصر القوانين الجائرة عليه، وكانت بحق وثيقة وطنية تاريخية صادقة لمرحلة هي من أصعب المراحل التي مرت بها اللغة العربية في الجزائر. ونظرا لتصميم السلطات الفرنسية على وأد حركة التعليم العربي الحر، وإصرار العلماء على تثبيتها وتوسيعها وتعميمها دخل الطرفان حلبة الصراع، وجند الاستعمار لبلوغ غايته

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

جميع ما يملك من وسائل مادية وطاقات بشرية وسلطة قانونية، وسجل الإبراهيمي مراحل هذا الصراع تسجيلا حيا باعتباره شخصية قيادية ضمن حركة نشر التعليم العربي الحر تحملت قسطا وافرا من مسؤولية الحفاظ على حسن سير هذه الحركة واستمراريتها. فقد ندد في مقالاته بالرخصة التي كانت تطلبها السلطات الاستعمارية للسماح بافتتاح المدارس العربية والتي لا تمنحها إلا لمن يرضى أن يكون جاسوسا لها على أبناء شعبه، وذكر أن العلماء المصلحون كانوا لا يعيرونها اهتماما لأنها: "شهادة قاطعة على ظلم الاستعمار، ونموذج من تعنته ومصادرته للحق، وبيان واضح لطريقة من طرائقه في حرب الدين والعلم، ووسيلة من وسائله في قتل معنويات الشعوب، وعنوان على مخازيه التي منها أن يعتبر الإسلام غريبا وهو في داره، والعربية أجنبية وهي في منبتها"٥٩. وأطال في وصف حالة المعلمين الأحرار الذين وُجِّهَت إليهم تهمة تعليم العربية بدون رخصة، فمثلوا أمام المحاكم وأودعوا السجون، وأُغلِقَت المدارس التي بناها الشعب بأمواله، وواجه الشعب الجزائري هذه الحرب السافرة بروح عالية من الصبر والتحدي، فكان كلما أغلقت إدارة الاحتلال مدرسة سارع إلى تأسيس مدرسة أخرى أو عدد من المدارس بدلها. وقد سجّل الإبراهيمي بكل فخر، أن الحركة الإصلاحية التي كان أحد قادتها الكبار قد استطاعت منذ انطلاقتها في ثلاثينات القرن العشرين إلى ما قبل بداية الثورة التحريرية الكبرى أوائل الخمسينات أن تُكوِّن جهازا تعليميا قويا وراقيا، حيث بلغ عدد المدارس العربية مائة وستة وعشرين مدرسة، يُستَثْنَى منها المدارس التي أغلقها الاستعمار، وبلغ عدد المعلمين فيها مائتين وخمسة وسبعين معلما، يُستَثْنَى منهم أيضا المعلمون الذين كانوا يقبعون في سجون المحتل بسبب نشاطاتهم الوطنية. وخرّجت هذه المدارس زهاء مائة وخمسين ألفا من حاملي الشهادة الابتدائية، وبلغ عدد تلامذة معهد ابن باديس الثانوي عام ١٩٥٥م ما يقارب ألف طالب موزَّعين على السنوات الأربع، وكانوا جميعا: "يحملون علما قليلا، ولكن معه فكر صحيح، وعقيدة قومية سليمة، ونظرة إلى الحياة سديدة"٦٠. وأفضى انتشار التعليم العربي الحر إلى ازدهار اللغة العربية وانتعاش الحياة الثقافية، وتطور الفكر الجزائري، وظهور نهضة علمية وأدبية واسعة تميزت عن التيار الثقافي الفرنسي الذي بقي غريبا عن الشعب. فقد تسللت اللغة العربية إلى أذهان التلاميذ والطلبة فاستقامت ألسنتهم، ونمت ملكاتهم، وتهذبت أذواقهم، وكان من نتائج ذلك أن تفجرت ينابيع الإبداع في نفوس الموهوبين منهم فتخرّج من مدارس التعليم العربي الحر: "شعراء وكتّبا وخطباء، وأصبح الشعر والكتابة والخطابة أدوات تقدم، ووسائل حياة لهذه الأمة، إذ لم تتصرف في الفنون السخيفة التي كانت تتصرف فيها، ولم تضطرب في الميادين الضيقة التي كانت تضطرب فيها، بل انطلقت أمام الحياة تمهد لها السبيل، وتفتح لها المغالق"٦١.

خاتمة ونتائج البحث

وبعدُ، فهذه محطات تصوِّر جهاد الإبراهيمي الطويل في سبيل اللغة العربية، وصبره على أعدائها، وثباته على المبدأ الذي أخذ به نفسه، والتزم بالقيام به حتى طواه لحده. وهي تسجل ايضا المعارك التي دخلها من أجل الذود عن هذه اللغة، وكلها توحي بضراوة الهجمة التي تعرضت لها العربية في تلك الحقبة من الزمن، وتجعلنا ننحني أمام هذه الإرادة الفولاذية التي وقفت في وجه الزوبعة الاستعمارية كالمارد الشامخ، ونُؤَمِّنُ على قول الإبراهيمي حينما يقول عن نفسه أنَّ: "موضوع العروبة أو العربية في الجزائر هو الموضوع الذي قسمه الله لي، وجعله ميدان أعمالي وأحاديثي، ومجال قلمي عشرات السنين"٦٢.

ولقد كان جهاده هذا طويل النَّفَس، امتد مع عمره، وكان صادق النبرة، قويَّ اللهجة، لأنه يستمد حياته من إيمان عميق في نفس صاحبه الذي جعل من أهم أهدافه في الحياة الدفاع عن العربية والإسلام، فالتزم بهدفه ذاك، ولم يكن ليصُدَّهُ عنه كثرة الأعداء والخصوم، ولا تألُّبَ الاستعمار على الأمة. يقول في ثقة وإصرار: "أنا مريض، والموضوع طويل عريض، وقد أصبحت بين عاملين: همٌّ يتجدّد وطبيب يتشدّد. وإنَّ حقَّ الضمير لأوْكَدُ عندي من حق الجسد، ولِيَقَع الاستعمار أو ليَطِرْ فإننا نتعلم لغتنا وديننا، ولو في سَمِّ الخِيَاط، أو على مِثل حَدِّ الصِّراط"٦٣.

وقد توصل البحث إلى جملة من النتائج نذكر منها:

- أن الجزائر كانت تعيش قبل الاحتلال الفرنسي جوا ثقافيا نشيطا، بدليل المدارس والمعاهد والمساجد والزوايا التي كانت منتشرة في المدن والقرى وتزاول مهمتها التعليمية باللغة العربية

التي كانت لغة البلاد الرسمية.

- أن الاحتلال الفرنسي قد استهدف اللغة العربية منذ سنوات الغزو الأولى، فشن ضدها حربا ضروسا لتجفيف منابع الثقافة العربية الإسلامية وضرب مقومات الشخصية الوطنية وإلحاق الجزائر بالكيان الفرنسي.
- أن الهجوم الكاسح والحرب المنظمة التي تعرضت لها العربية على أيدي الاحتلال الفرنسي قد أضعفتها وغيَّبتها، وأغرقت الشعب في بحر الأمية، وشارفت على الاندثار بعد مرور مائة عام على الغزو الاستعماري.
- أن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رمز من رموز الحركة الإصلاحية التي أخذت على عاتقها مسؤولية النهوض باللغة العربية في الجزائر وإحيائها وترقيتها والتصدي لمشروع الفَرْنَسَة الذي كان يهدف إلى سلخ الجزائر عن تاريخها وإلحاقها بفرنسا تاريخا وجغرافية وثقافة.
- أن اللغة العربية قد احتلت نصيب الأسد في خطاب الإبراهيمي الإصلاحي. وأن محوريتها ظهرت في مجالين: مجال الكتابة التي سخرها للدفاع عنها ضد مؤامرات الاستعمار، والمطالبة بحق الشعب الجزائري في تعليمها، وبيان مميزاتها بين لغات العالم، ومجال تأسيس المدارس العربية الحرة والإشراف عليها، وتكوين المعلمين، ووضع المناهج، وتسطير البرامج.
- أن الإبراهيمي يعتقد أن هناك علاقة جدلية بين العربية والإسلام الأمر الذي يؤكد استحالة فصلهما عن بعضهما، فبقاء العربية في الجزائر مرتبط حتما ببقاء الإسلام فيها، ومحاربة أحدهما تهديد مباشر للآخر.
- أن اللغة العربية في الجزائر مقوم أساسي من مقومات الشخصية الوطنية، وأن تغييبها يشكل خطرا داهما على الهوية الجزائرية في مواجهة تيار الفَرْنَسَة الطاغي.
- يعتقد الإبراهيمي أن اللغة العربية لغة راقية ذات أبعاد حضارية وعالمية. وقد أثبتت جدارتها في استيعاب العلوم وإنتاج المعرفة على مدى قرون عديدة، وفي هذا رد قويّ على اتهامات الاستعمار لها بالعجز والقصور وعدم القدرة على صنع الحضارة.
- يؤكد الإبراهيمي أن إحياء اللهجات المحلية مؤامرة استعمارية لإضعاف العربية وتهميشها وتغليب هذه اللهجات عليها، ودق إسفين الفرقة بين العرب والبربر لتبقى الفرنسية هي صاحبة الكلمة الأولى.
- أن حركة التعليم العربي الحر التي قادها الإبراهيمي وإخوانه كانت ردا عمليا قويا على مشروع الفرنَسَة، حيث استقطبت أطفال الجزائر وأحيَت في نفوسهم حب لغتهم، وفجرت مواهبهم، وغذت فيهم الروح الوطنية، وأفشلت سياسة الإدماج، وأعادت للعربية مكانتها اللائقة بها على ألسنة أبنائها.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الهوامش

١ أحمد الخطيب. الثورة الجزائرية، دراسة وتاريخ. دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٥٧م. ص ١٢٨

٢ رابح فلاحي. جامع الزيتونة والحركة الإصلاحية في الجزائر (١٩٠٨/١٩٥٤). رسالة ماجستير. جامعة منتوري. قسنطينة. الجزائر. ٢٠٠٨م. ص ٢

٣ ينظر: بسام العسلي. عبد الحميد بن باديس. دار النفائس. بيروت. ط ١. ١٩٨٢م. ص ٢٩

٤ عبد القادر حلوش. سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر. شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. ٢٠١٠م. ص ٢٩

٥ أحمد توفيق المدني. كتاب الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ١٩٨٤م. ص ٢٠٣، ٢٠٨، ٢٣٩

٦ رابح تركي. التعليم القومي والشخصية الوطنية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ١٩٧٥م. ص ٩٥

٧ عبد الرشيد زروقة. جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (١٩١٣/١٩٤٠م). دار الشهاب. بيروت. ط ١. ١٩٩٩م. ص ٢٨

٨بسام العسلي. عبد الحميد بن باديس. ص ٥١

٩شلتاغ عبود شراد. حركة الشعر الحر في الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ١٩٨٥م. ص ٢٠

١٠ كوليت وفرانسيس جانسون. الجزائر الثائرة. ترجمة: محمد علوي الشريف وآخرون. دار الهلال. القاهرة. ١٩٥٧م. ص ١٣٠

١١ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٢٧٢

١٢محمد البشير الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٣١٠ ـ ٣١١

١٣ المصدر نفسه، ص ٢٤

١٤مصطفى صادق الرافعي. تحت راية القرآن. صحح أصوله: محمد سعيد العريان. دار الكتاب العربي. بيروت. ط ٧. ١٩٧٤م. ص ١١

١٥الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٤٧٩

١٦ الجِرَان: مُقَدَّم عنق البعير من مذبحه إلى منحره. فإذا برك البعير ومدَّ عنقه على الأرض قيل: ألقى جرانه بالأرض. (ينظر: أحمد بن محمد بن علي الفيومي. المصباح المنير. ج ١. ص ٩٧)

١٧ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٢٢١

١٨ الفرقدان: نجمان قريبان من القطب. وهما نجمان متلازمان أبديا الظهور لا يغيبان عن نصف الكرة الشمالي.

١٩ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٢٢٢

٢٠ مصطفى صادق الرافعي. وحي القلم. دار الكتاب العربي. بيروت. د.ت. ص ٣٢ ـ ٣٣

٢١ ساطع الحصري. ما هي القومية؟. دار العلم للملايين. بيروت. ط ٢. ١٩٦٣م. ص ٥٩

٢٢ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٢٤

٢٣المصدر نفسه. ص ٣١٣

٢٤ انفصلت الباكستان عن الهند وحصلت على استقلالها عام ١٩٤٧م

٢٥ محمد البشير الإبراهيمي. آثار محمد البشير الإبراهيمي. ج ٤. ص ٣٢

٢٦ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٤٧٨ ـ ٤٧٩

٢٧ محمد البشير الإبراهيمي. في قلب المعركة. ص ٢٣٧

٢٨ محمد البشير الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ج ١. ص ٢٦٣

٢٩ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٤٧٣

٣٠آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ج ١. ص ٢٥٨

٣١ المصدر نفسه. ج ١. ص ٢٦٠ ـ ٢٦١

٣٢المصدر نفسه. ج ١. ص ٢٦١

٣٣المصدر نفسه. ج ١. ص ٢٥٩

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

٣٤ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٣١٠

٣٥الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ج ١. ص ٢٦١

٣٦ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٤٧٧

٣٧ محمد البشير الإبراهيمي. "أنا". مجلة الثقافة. وزارة الثقافة والسياحة. الجزائر. ع ٨٧. ص ٢٣

٣٨ القبائلية هي اللهجة الأمازيغية المنتشرة في بلاد القبائل، وهناك إلى جانبها الشاوية والترقية والميزابية وغيرها.

٣٩ عثمان الكعاك. البربر. طبعة تونس. ١٩٥٦م. ص ١٣٤

٤٠ علال الفاسي. الحركات الاستقلالية في المغرب العربي. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. المغرب. ط ٥. ١٩٩٣م. ص ١٦١

٤١ رابح تركي. الشيخ عبد الحميد بن باديس. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط ٣. ١٩٨١م. ص ٤٦

٤٢ عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون. الكفاح القومي والسياسي. ج ٣. ص ١١١ ـ ١١٢

٤٣ينظر: أبو يعلى الزواوي. تاريخ الزواوة. تعليق: سهيل الخالدي. وزارة الثقافة. الجزائر. ط ١. ٢٠٠٥م

٤٤ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦

٤٥ الأواخي: جمع أخيّة بالمدّ والتشديد: عروة تربط إلى وتد مدقوق. (أحمد بن محمد بن علي الفيومي. المصباح المنير. ج ١. ص ٨)

٤٦ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٢٢١

٤٧ المصدر نفسه. ص ٢٢١

٤٨ المصدر نفسه. ص ٢٢٢

٤٩ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٤٨٠

٥٠المصدر نفسه. ص ٤٨٠

٥١ المصدر نفسه. ص ٢٢٢

٥٢ المصدر نفسه. ص ٢٢٣

٥٣ المصدر نفسه. ص ٤٤٦

٥٤ المصدر نفسه. ص ٢٢٣

٥٥ المصدر نفسه. ص ٣١١

٥٦ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٣١١

٥٧ المرجع نفسه. ص ١٢٩

٥٨ أحمد توفيق المدني. كتاب الجزائر. ص ٢٩٣

٥٩ الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٢٤١

٦٠ محمد علي الحوماني. الأصفياء. دار مصر للطباعة. القاهرة. ١٩٥٥م. ص ٢١١

٦١ محمد البشير الإبراهيمي. "عرض الحالة العلمية". مجلة الشهاب. أغسطس ١٩٣٤م. مج ١٠. ج ٩. ص ٣٨٦

٦٢ الإبراهيمي. "مشكلة العروبة في الجزائر". مجلة الثقافة. ع ٨٧. ص ٤١٥

٦٣٦٣الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٢٤٥

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

قائمة المصادر والمراجع

أ- الكتب

١. أحمد بن محمد بن علي الفيومي. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي. المكتبة العلمية. بيروت. د.ت

٢. أحمد توفيق المدني. كتاب الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ١٩٨٤م

٣. أحمد الخطيب. الثورة الجزائرية، دراسة وتاريخ. دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٥٧م

٤. أبو يعلى الزواوي. تاريخ الزواوة. تعليق: سهيل الخالدي. وزارة الثقافة. الجزائر. ط ١. ٢٠٠٥م

٥. بسام العسلي. عبد الحميد بن باديس. دار النفائس. بيروت. ط ١. ١٩٨٢م.

٦. رابح تركي. الشيخ عبد الحميد بن باديس. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط ٣. ١٩٨١م

٧. رابح تركي. التعليم القومي والشخصية الوطنية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ١٩٧٥م.

٨. رابح فلاحي. جامع الزيتونة والحركة الإصلاحية في الجزائر (١٩٠٨/١٩٥٤). رسالة ماجستير. جامعة منتوري. قسنطينة. الجزائر. ٢٠٠٨م

٩. ساطع الحصري. ما هي القومية؟. دار العلم للملايين. بيروت. ط ٢. ١٩٦٣م

١٠. شلتاغ عبود شراد. حركة الشعر الحر في الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ١٩٨٥م

١١. عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون. الكفاح القومي والسياسي. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ١٩٨٤م

١٢. عبد الرشيد زروقة. جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (١٩١٣/١٩٤٠م). دار الشهاب. بيروت. ط ١. ١٩٩٩م

١٣. عبد القادر حلوش. سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر. شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. ٢٠١٠م

١٤. عثمان الكعاك. البربر. طبعة تونس. ١٩٥٦م

١٥. علال الفاسي. الحركات الاستقلالية في المغرب العربي. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. المغرب. ط ٥. ١٩٩٣م

١٦. كوليت وفرانسيس جانسون. الجزائر الثائرة. ترجمة: محمد علوي الشريف وآخرون. دار الهلال. القاهرة. ١٩٥٧م.

١٧. محمد البشير الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ج ١. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط ١. ١٩٧٨م

١٨. محمد البشير الإبراهيمي. آثار محمد البشير الإبراهيمي. ج ٤. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ١٩٨٥م.

١٩. محمد البشير الإبراهيمي. عيون البصائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. د.ت

٢٠. محمد البشير الإبراهيمي. في قلب المعركة. جمع وتصدير: أبو القاسم سعد الله. شركة دار الأمة. الجزائر. ط ١. ١٩٩٤م

٢١. محمد علي الحوماني. الأصفياء. دار مصر للطباعة. القاهرة. ١٩٥٥م

٢٢. مصطفى صادق الرافعي. تحت راية القرآن. صحح أصوله: محمد سعيد العريان. دار الكتاب العربي. بيروت. ط ٧. ١٩٧٤م

٢٣. مصطفى صادق الرافعي. وحي القلم. دار الكتاب العربي. بيروت. د.ت

ب- الدوريات

٢٤. مجلة الشهاب. أغسطس ١٩٣٤م. مج ١٠. ج ٩. قسنطينة. الجزائر

٢٥. مجلة الثقافة. عدد ٨٧. مايو- يونيه ١٩٨٥م. الجزائر

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2